الفصل الخامس

الإسلام والحضارة: أزمة هوية
الإسلام دين أم حضارة؟

الإسلام والحضارة: أزمة هوية

ثمة سؤال عميق يدور في الأذهان وهو، هل الإسلام دين أم حضارة، أم تراه دين وحضارة في آنٍ واحد؟ وذلك قياسًا على ما لدى البوذية والهندوسية من حضارة حملت هوية القوم التي انطلقت من أرضهم، والتي تعارفنا عليها في الأمس واليوم بالحضارة الصينية أو الهندية، وحتى الفرس كانوا أشد إصرارًا من غيرهم في تحديد حضارتهم ابتداءً من هويتهم القومية، رغم تعاقب الأديان قديمها وحديثها، التي لم يبق منها إلا ما بقي من آثار زرادشت.

هذا القياس ينطبق أيضًا على حضارات النصف الغربي من الكرة الأرضية، لا سيما وأن الحضارة الغربية ظلت متمسكة بهويتها القومية إلى اليوم في ظل رفضها المستمر لصبغة الحضارة بأي لون غير لونها الحقيقي، سواء أكان ذلك قبل ميلاد السيد المسيح أو بعده، وتجلى هذا الرفض جليًا في إفشال مساعي الكنيسة، التي لم تنجح في إضفاء صبغة لونها الديني على هرم الحضارة من خلال إخضاع قلوب المؤمنين لسلطتها الكهنوتية، إن ترغيبًا أو ترهيبًا، لهذا بقيت الحضارة الرومانية والإغريقية بمعناها الواسع، ذلك الإطار الثقافي الممتد لآلاف السنين.

وإذا ما عدنا إلى السؤال الذي بدأنا به موضوعنا، فإننا سنكون أمام رأيين متفاوتين يصلان بنا إلى عتبة الصراع المرفوض، الرأي الأول، يعتبر أن الإسلام إلى جانب كونه دينًا، فإنه أيضًا يمثل الشق الروحي للحضارة، ورأيهم هذا، كرد مباشر على تشبث

بعض المستشرقين أو المستغربين في تقسيمهم الحضارة إلى جزئين، جزء مادي وآخر روحي، فروحانية الإسلام في معتقدهم جزء موصول من ثقافة الاتصال الروحي بين الخالق والمخلوق، أما صرحها الحضاري، فهو البناء الإيماني الراسخ في شخص الإنسان العاقل، من خلال تنوير ما ظلم في قلبه وعقله.

وبالنسبة إلى أصحاب الرأي الثاني، فإنهم يرون أن ادعاء الإسلام للحضارة، يجافي حقائق الواقع والتاريخ، يجافي الواقع لأنه يسلب العرب هويتهم الحضارية كقوم مثل سائر الأقوام الإنسانية الأخرى، صحيح أن الإسلام انطلق من أرض العرب الأولى، إلا أنه لا يبرر انصهار هوية العرب في بوتقة الإسلام كحضارة أوسع وإطار أشمل، وإلا لغدت حضارة الجرمان والرومان، حضارة مسيحية بالكامل، وهنا تظهر مجافاته لحقائق التاريخ إذا ما حصل فعلاً، وبما أنه حاصل الآن في الإسلام، فإنه بلا شك، أحد مسببات الصراع المستديم بين أصحاب الرأيين السالفين، بحيث تظهر مقدماته الأولى في الخيار بين استيراد الحضارة واستهلاكها.

وبين الرأيين السالفين، يدخل الإسلام والحضارة في أزمة هوية عميقة، تتحدد نقاطها الأساسية، بين نفي الحضارة وتأكيدها.

أولاً: نقاط النفي

النقطة الأولى، تسلم هذه النقطة بداهة، بما أن الإسلام نزل من السماء، فلا شك أنه دين وثقافة وفكر، لكنه يستحيل أن يكون حضارة، فالأخيرة لا تأتي من السماء بل من الأرض ومن عقل الإنسان المبدع، الذي أفرز اختراعات وإنجازات هي عماد الحياة، عندما يترجم الفكر والثقافة إلى علم، والعلم إلى نظريات وقوانين وأبحاث

ومخابر ومصانع، عندها بالذات تكون الحضارة، فالاختراعات والإنجازات العلمية هي قمة الفكر، وهي الحضارة بعينها.

النقطة الثانية، ترى إن ما يسمى بالحضارة التي يطلقها البعض على الإسلام، جرى تجميعها من الغزو الذي خاضه المسلمون الأوائل في كل البلاد التي تم غزوها باسم الدين، وما ملكات اليمين إلا دليلاً على أن الإسلام لم يحرر العبيد، ولم تكن إحدى سماته، وما قام به النبي محمد ﷺ لتحرير بعض العبيد، فهو بسبب اشتراكهم في الغزوات التي كانوا يقومون فيها.

النقطة الثالثة، تنفي أن يكون الإسلام دينًا أو حضارةً في آنٍ معًا، دينًا لأنه يخالف أبسط قواعد العدل والمساواة، من حيث تحليله لتعدد الزوجات والعبودية، وحضارة لأن ما تركته الحضارة الإسلامية من آثار، لا يتعدى بناء المساجد والقصور لمتعة الحاكم وأعوانه، مقارنةً مع ما قدمته الحضارة الرومانية أو الفرعونية من آثار، سبقت الحضارة الإسلامية بمئات السنين.

النقطة الرابعة، ترى أن المرحلة الزاهية في تاريخ الإسلام تجلت بإصدارات الفلاسفة المسلمين، والتي كانت لها جذورها في الترجمات العربية لفلاسفة اليونان كأرسطو، وهؤلاء الفلاسفة المسلمون ليسوا عربًا، وإنما ذوو النزعة الهلينية الذين ازدهرت أفكارهم لوقت قصير، عندما كانت الرياح السياسية تجري بما تشتهي سفنهم، ثم جاء عهد القمع والاضطهاد والحرق فاندثرت في بلاد الإسلام، لكنها وجدت سبيلها إلى أوروبا، التي استفادت منها ووقفت عليها لتشق طريقًا جديدًا، وقف المسلمون أمامه حيارى ضائعين، ينطقون بلغة أقرب للعصر الحجري، عند ذاك فقط أخذوا يطالبون بالورقة الوحيدة، فبدءوا بالاعتراف بابن رشد ورفاقه بعد أن كفروهم ونبذوهم.

ثانيًا: نقاط الإثبات

النقطة الأولى، تؤكد أن الإسلام استطاع بفضل حضارته تكوين أمة فريدة في تنوعها وفي تكاملها، كما أنه أتاح حرية الاعتقاد وحرية مزاولة هذا المعتقد للجميع، وتجلى ذلك لدى الحاكم المسلم والطبيب المسيحي والحكيم اليهودي والفيلسوف المجوسي، فهذا التنوع لا نظير له في الدنيا.

النقطة الثانية، ترى أن مشكلة الحضارة ليست في الإسلام والمسيحية واليهودية، لأن كل شخص من هذه الديانات يعتقد أنه على صواب، فالحضارة تتأكد في الحوار بين الأديان الثلاثة واجتماعها على طاولة الحوار الديني، لأن هناك الكثير من المزايا داخل كل ديانة بعينها، ومن الممكن أخذها ووضعها على هيئة قانون من شأنه أن يضع حدًا لأي شائبة تشوب المجتمع وبما يرضي جميع أطرافه.

النقطة الثالثة: تضع الإسلام والحضارة في قالب واحد، لكنها تعتقد أنه من الأفضل بالنسبة للمسلمين التأكيد على الدين أولاً كسبيل لتأكيد الحضارة تاليًا، لأن تعاليم إدارة الحياة المتضمنة في الدين، أقل المجتمعات تطورًا قد تجاوزتها، وبعض الأحكام لم تعد منصفة للأفراد، مثل ميراث الأنثى، فنسبة كبيرة جدًا من الأسر تعولها النساء، ولذلك، فأنها توجب على المسلمين الشروع في تطوير التفسيرات طبقًا لحاجة المجتمع والناس، نظرًا لأن مفاهيم الإسلام في بداياته طورت حياة الناس وقتها لصالح الحرية والاستقلال، وخاصة بالنسبة للمرأة والعبودية.

وبما أن كفة الحضارة تميل اليوم لمصلحة الجزء المادي، دون أن نقول لمصلحة الغرب، وذلك منعًا من الوقوع في شطط التعميم وأخطائه، فإن دعاة الجزء الروحي، سيكونون في موقف

المستهلك لحضارة الجزء المادي، وفي الوقت نفسه يعلنون استنكارهم لها شكلاً ومضمونًا، رغم استخدامهم المفرط لأدواتها في الحرب والسلم، ولن يكونوا في موقف المنتج للحضارة، طالما أنهم يعلنونها صراحة، أن حضارتهم روحية، وليست مادية ذات طبيعة إنتاجية، إذن فما عساها أن تكون؟ أتكون ذات طبيعة إيمانية استهلاكية عاجزة كل العجز عن الإنتاج، أم أنها تكون روحية بمدلول التسامح، في مقابل المادية التي لا تصدر سوى القوة المدمرة للكون؟.

وإزاء هذا التبرير والتبرير المضاد، هل من التسامح بشيء تفخيخ الروح الإنسانية التي هي أسمى وأرفع من المادة الصانعة لها، استعدادًا لتفجيرها؟.

سؤال قد يعيدنا مرة أخرى إلى مربع الأزمة، وهو هل الإسلام دين أم حضارة؟.

الإسلام دين أم حضارة؟

بالعودة إلى مربع الأزمة الأول، أزمة هوية الإسلام كدين أو حضارة في آنٍ معًا، لا يستوي بنا المقام ولا يستقيم البتة في زمننا الحاضر، فلم يعد المزج بين خصائص العقل والروح، الذي قام به المسلمون الأوائل، صالحًا في هذا العصر، فإما أن يكون العقل هو الموجه الأساسي لحضارة المجتمعات الرقمية، مجتمعات المعرفة العالمية ما بعد الحداثية أو لا يكون.

ومهما تذرع البعض وراهن على عالمية الإسلام وشموليته كدين وحضارة لكل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية، فإن ذلك لا يخوله اللحاق بالفضاء العالمي أو بالعالمية، وليس السبب في ذلك عائدًا إلى تأخره العلمي والفكري، أو لابتعاده عن ميادين البحث والتجريب، بل لأن متطلبات المجتمع المعرفي غير متوفرة لدى عموم المجتمعات الإسلامية، وأهمها تبلور الوعي الكوني على حساب الوعي المحلي أو القومي، فأغلب المجتمعات الإسلامية ورغم سباتها الطويل في أمجاد حضارة الأجداد، سواء ما شهدته عاصمة الخلافة العباسية بغداد، عندما انطلقت فيها أول جامعة "بيت الحكمة" التي أنشأها الخليفة المأمون عام ٨٣٠م، أو العمران الذي فاخرت به الدولة الأموية في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك، بدءًا من إسبانيا وصولاً إلى تخوم الصين، فإنها لا زالت تطوف في بؤرة واقعها كمجتمعات زراعية دون أن تصل بعد لواقع المجتمعات الصناعية الحداثية، فما بالنا بحال مجتمع المعلومات ما بعد الحداثي.

هذه الهوة السحيقة بين الواقع والإمكانات المتاحة والمتوفرة لعموم المجتمعات الإسلامية، وللإسلام كديانة عالمية وشمولية، مثلما يصر بعض منظريه في التأكيد على هذه السمة، بداعي أنها تلبي حاجات الإنسان الروحية والعقلية والبدنية، تقدم الإجابات المقنعة حول الأزمة الحضارية العميقة التي يعيشها الإسلام والمسلمون على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وتطرح سؤالاً مركزيًا، ماذا بقي من الحضارة الإسلامية في عالم اليوم؟.

إذا كانت الحضارة مجرد عقائد وقيم ومبادئ أخلاقية، أي أنها في مجموعها تشكل أيديولوجية متكاملة الأبعاد والزوايا، فإننا اليوم في عصر ما بعد الأيديولوجيات، عصر سقوط الأيديولوجيات لصالح النزوع الكوني لمفهوم الحضارة بالمعنى العولمي للكلمة.

أما إذا كانت الحضارة الإسلامية غاية في حد ذاته، أي أنها تستهدف فعلاً إعمار الكون وفقًا للشرائع السماوية، فليس في سلوك الأفراد والجماعات الإسلامية ما يشي بذلك الإعمار الروحي الذي يرضي الخالق، بدليل النكوص الكبير في تشييد الروح المعاصرة، روح التسامح والسلام، كبديل عن روح التعصب والتطرف التي بدأت بالتغلغل في أقصى أعماق النفس.

وليس هنالك أيضًا، ما يشير إلى تطور الإعمار المادي بمعناه العلمي البحت، المرفوض أصلاً، كواحد من أهم تجليات الحضارة الإنسانية، بقدر ما بات يوجد لدينا الآن من عنف منظم باسم الدين، غايته النهائية، نسف كل ما يمت إلى ذلك الإعمار المادي بصلة.

وبالعودة إلى سؤال الأزمة، التي أوجد الإسلام نفسه فيها، كدين له عقائده وأحكامه، كما له إطاره الحضاري الخاص، الذي يصر جمهور المسلمين على وجوديته، حتى لو رفض الآخرون

الإقرار به، فإننا لا نستطيع الانتقال من نقطة لأخرى، دون الوقوف على سؤال العصر، هل الإسلام دين أم حضارة؟.

بغض النظر عما سبق شرحه أو تفصيله ومهما قيل عن الثورة العلمية والفكرية التي أحدثتها الفلسفة الإسلامية في واقع المجتمعات الغربية في القرون الوسطى، إلا أنه لا يمكن أن نفسر ما حدث من حركات احتجاجية على سلطة الكهنوت الكنسي، بسبب النقلة التي أحدثتها الفلسفة الإسلامية في كيان الغرب، الذي انتابه الشعور وللوهلة الأولى بالدونية الحضارية، عندما وجد حضارة المسلمين في أبهى صورها، فلو كان تأثير الفلسفة الإسلامية المترجمة أصلاً عن أعلام الفلسفة الإغريقية، والمعاد قولبتها وقوننتها وفق الأصول والقواعد الإسلامية، بما يحافظ على ثباتها، لكانت أوروبا بكل مدارسها الفلسفية الحديثة التي ظهرت في عصر النهضة، تأثرت تأثرًا إسلاميًا كاملاً، بحيث غدت مجتمعات إسلامية أكثر منها مسيحية، فإذا ما كان هناك من تأثير، فالمؤكد أنه نسبي، فالفلسفة وبتعريفاتها المتفرعة والمتعددة كمحور للعلوم الإنسانية، وباعتبارها أحد السمات المميزة لأي حضارة إنسانية، ليست حكرًا على ثقافة أو مجتمع معين، فما يميزها، أنها انطلقت قبل غيرها من العلوم في قديم الزمان، مثلما تنتقل اليوم المعلومات عبر مختلف الأوعية والقنوات الاتصالية على مساحة الكون، كما أن الحضارة لا تُعرّف بأنها العمران وحسب، ولا تدور حول الكتب، إنما هي ذلك الوعاء الإنساني الجامع لكل التجارب والخبرات والمهارات والسلوك والقيم والثقافات، لتشكل في مجموعها الحضارة بشقيها المادي والروحي، وقد لا يتساوى ما هو مادي مع ما هو روحي، فالحضارات الغربية شهدت في أغلب الأحيان، طغيان الشق المادي على الروحي، بعكس الحضارات الشرقية، لكن المهم أن تجمع ما بين المادي

والروحي، وإن بنسب مختلفة أو متفاوتة حسب الظروف الزمانية والمكانية المتوفرة لكل شعب بعينه.

نستطيع القول، بأن هوية الحضارة في الإسلام مرت بمراحل متعددة، وفقًا لتقسيمات الحضارة وظروف كل عصر، ففي الماضي البعيد، أي في بداية تشكل الدولة الإسلامية، وبعيد صدور وثيقة المدينة، كانت الحضارة في سماتها العامة، أقرب ما تكون إلى حضارة الدول الناشئة، التي كانت قائمة آنئذ على الزراعة وبعض الصناعات وما يتوفر لها من العلوم والفلسفات.

أما في العصر الممتد من مرحلة دويلات الملوك والطوائف، التي أعقبت سقوط الدولة العباسية، وصولاً إلى عصرنا الراهن، فقد شهدت الحضارة صعودًا وهبوطًا على مراحل مختلفة، ونقلت الكثير من العلوم والأفكار بفعل التواصل والتلاقح الثقافي مع الغرب، لكنها لم تستطع تطويرها إلا ما ندر، فبالرغم من تطور علم الفلك لدى عموم المسلمين في حقب مختلفة، إلا أنه في حقيقة الأمر، يرجع في أصله إلى علماء الإغريق، كما أن علم الرياضيات الذي انفرد به المسلمون عن غيرهم من الشعوب، نقلوه في الأصل عن الهنود الذين أخذوه وترجموه عن الصينيين.

كل هذا يؤكد لنا، بما لا يدع مجالاً للشك، أن الحضارة ليست هي الدين بعينه، وليست غاية بحد ذاتها، بقدر ما هي وسيلة للتعايش الإنساني بين شعوب الأرض قاطبة في كل زمان ومكان.

وإذا كانت هوية الحضارة الإسلامية في بداياتها أصيلة، بكل ما انطوت عليه من عقائد دينية وسياسية واقتصادية، فإن هويتها اليوم، أقرب ما تكون إلى الاقتباس، بما يعني الاستهلاك المنظم وغير المنظم، والتقليد الأعمى لكل مخرجات الحضارة الحديثة.